مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
ISSN : 2392 - 5361
المجلد 4 العدد 1 / جوان 2018

Mila Univ center. Publish. Co..

جغرافية العمران ببلاد الزاب من خلال رحلة فيض العباب للنميري

-قصر عثمان الرياحي أنموذجا-

Geography of urban areas in the country of Zab through the flood trip of Al - Abab al - Numeiri

- Otman Al-Riahi Palace model

أ. الصادق زياني
جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة - الجزائر

تاريخ الاستلام: 2017/06/30 تاريخ التعديل: 2017/12/25 تاريخ قبول النشر: 2018/01/18

الملخص :

تسلط هذه الورقة البحثية الضوء على معالم العمارة، أشكالها، وتوزعها بحواضر بلاد الزاب بالاعتماد على مصدر مهم من مصادر الرحلة ممثلا في رحلة إبن الحاج النميري والموسومة بـ" فيض العباب"، من خلال المعطيات والشواهد التي قدمها لنا هذا الرحالة عن النسيج العمراني في المجال الزابي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين/13-14م. وقد اخترنا أنموذجا من القصور بني رياح التي انتشرت ببلاد الزاب ممثلا في قصر عثمان الرياحي، محاولين عرض مواصفاته التقنية وتخطيطه الداخلي وتوطينه، مع رسم شكله التصوري من خلال رحلة فيض العباب.

الكلمات المفتاحية: بلاد الزاب، العمارة، التوطين الهلالي، الطوبونيميا، بنو رياح، القصور.

Abstract:

This paper discusses the features and forms urbanization of the Architecture in the cities of Zab during the Century 7th - 8th Hijri /13 -14 AD in the source represented in the "Faydh El-Obab" to Ibn Haj Nimeiri; we chose a model for the palaces built by "B'ni Riyah" in the Palace of Othman Al-Riyahi.

***Key words**: Zab, Architecture, B'ni Hillel, Toponym, B'ni Riyah, Palaces*

مقدمة:

شكلت كتب الرحلة مصدرا ثريا بالمعلومات حول توطين المجال الزابي وأشكال العمران به خلال القرنين السابع والثامن الهجريين/13-14م، ولعل رحلة " **فيض العباب وإفاضة قداحة الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**" للنميري من أهم هذه المصادر الرحلاتية، والتي قدمت لنا مجموعة من الشهادات والملاحظات المهمة حول الواقع العمراني وأشكاله ببلاد الزاب والأوراس، خاصة بعد استقرار العنصر الهلالي بالمجال الزابي، والذي نقله إلى وسط عربي- ريفي غلب عليه إلى حد كبير مفهوم القبيلة بمعناها التقليدي، وكان أساسه الغلبة والسيف، وأدى هذا إلى اقتطاع واغتصاب الكثير من الأراضي والممتلكات من الجماعات المحلية بالزاب على غرار لواتة وزناتة، حتى أصبحوا تحت سلطتهم بعدما استحوذوا على مجالاتهم الواسعة.

واستطاع بنو رياح وبنو مزني من تغيير النظرة السلبية التي رسمت عنهم بخصوص دورهم التخريبي، ومدى الانحطاط الذي أصاب المجالات التي استقروا بها على غرار بلاد الزاب، حيث نجح بنو رياح في إبراز مستوى تحضرهم من خلال تشييد الكثير من أشكال العمران بالأرياف على غرار قصر باينة، قصر عثمان الرياحي، قصبة طولقة، حصن الوطاية، حصن الفلق، حصن سفيان، قلاع ريغه، وحصن فرفر، وغيرهم كثير، في تحول طوبونيمي-قبلي بارز ببلاد الزاب وماحولها، وتواصل في الشكل العمراني بعد استمرار نماذج التحصينات التي عهدناها منذ العصور القديمة؛ في حين نجح بنو مزني من تأسيس "مُلك" بقاعدة بلاد الزاب بسكرة، مما يبرز

الدور البناء للقبائل الهلالية، ويدحض بذلك فكر الأولين من شاكلة المؤرخ ابن خلدون وغيره من المستشرقين الذين وصفوهم بـ" الكارثة الهلالية" أو " القطيعة".

وانطلاقا من هذا، ماهي معالم وأشكال العمارة ببلاد الزاب التي وقف عليها ابن الحاج النميري؟ وهل العمارة الرياحية في بلاد الزاب تنفي فكرة الكارثة الهلالية؟ ولماذا اختص الفرع الرياحي في مجال القصور؟ وهل يمكن الحديث عن تواصل في فن عمارة القصور، أم أنه طوبونيم-قبلي جديد برز بالأرياف ما بعد الهجرات الهلالية؟.

معالم العمران ببلاد الزاب:

ليس هناك أدنى شك بأن الإنسان الهلالي قد كان له دور بنّاء في تشكيل العمران ببلاد الزاب، هذه الحقيقة التي أكدها أحد من عاش في أوساط الجماعات الهلالية ببلاد الزاب خاصة عندما استقر لفترة طويلة بينهم، ونقصد العلامة عبد الرحمن بن خلدون(ت808ه/1406م)، فبالرغم من نظرته الخاصة تجاه هذا الوافد الجديد على التوطين بالمجال الزابي[1]، إلا أنه يتراجع عن هذا المفهوم الخاطئ نسبيا، عندما يبرز الدور الحضاري لهذه الجماعات ممثلا في التمايز العمراني، وبالأخص الفرع الرياحي في مجال العمران[2]، والجماعات المزنية في مجال تكوين السلطة والملك بقاعدة الزاب بسكرة، على غرار الأسر المحلية انطلاقا من العصبية وحدها أو عندما تتلاقى هذه الأخيرة مع الدعوة الدينية[3].

وعلى شاكلة ابن خلدون، حاول ابن الحاج النميري(توفي بعد 774ه/1346م) في رحلته "فيض العباب" العام 758ه/1358م، أن ينتقد المفهوم الخاطئ للدور التخريبي للجماعات الهلالية، بل ما أصبح يصطلح عليه " الكارثة الهلالية" أو " القطيعة بين عالم الحضارة وعالم البداوة"[4]، وقد برز هذا النفي عند النميري في رواياته المتعلقة بالعمران(القصور والقلاع الرياحية)، وتشكيل كيان سياسي(امارة بني مزني). إنه وبالرغم من انحيازه وميوله للسلطة المرينية ممثلة في السلطان أبي عنان(ت 759ه/1358م)، إلا أن الصورة المذهلة التي وقف عليها هذا المصدري للشكل المعماري لقصور بني رياح، والقصبات المجاورة لها، قد أجبراه على تقديم الحقائق كما هي بالرغم من تخريب جل هذه الهياكل القاعدية ببلاد الزاب بعد هذه الحملة المرينية.

لقد تمكنت الجماعات الهلالية من بسط سيطرتها على أغلب الارياف ببلاد الزاب، بل على كل المسالك التجارية-الحركية المهمة، مما حول نظام حياتهم السابق ونعني به

البداوة والترحال، الى حياة الاستقرار والتحضر[5]، هذا ما أنتج لنا مشهدا عمرانيا جديدا، لم يكن سوى تواصلا للشكل العمراني–العسكري القديم مستمرا في شكله القديم ونقصد التحصينات، مع بروز أوجه جديدة للعمران–العائلي، والعمران–القبلي ممثلة في القصور، وحتى القصبات، ويمكن ابراز معالم العمران خلال الفترة المطروقة في الاشكال التالية :

1–الحصون والقلاع:

كانت ببلاد الزاب خلال العصر المريني، ومن خلال ما أورده النميري في رحلته الكثير من القلاع والحصون، منها قلعة لميس، حصن الوطاية، حصن الفلق، حصن سفيان، قلاع ريغه، حصن فرفر[6]. إن هذا العدد الهائل من القلاع والحصون لم يكن وليد هذه الفترة الوسيطة، بل ماهو إلا تواصل لسياسة تعميرية قديمة كانت سائدة منذ الفترة الرومانية–البيزنطية، حيث يذكر(بلونشي Blanchet) بأن المدن الكبرى للبربر المسلمين لم تكن سوى المدن العسكرية البيزنطية المحصنة فقط والتي في الغالب تم اعادة تجديد هياكلها[7].

إن فكرة تواصل أشكال الحصون والقلاع القديمة[8] كما أورد ذلك بلونشي نلمحه في حصن لاميس، غير أن الطوبونوميا في حد ذاتها أثارت وتثير الكثير من الاشكاليات، فهل المقصود بحصن لاميس الحصن القديم لامبيز أو لمبيس؟ هذا التساؤل عرضه يوسف عيبش في أطروحته[9]، وحاول الإجابة عليه من خلال ذكر ماجاء من إجماع على أنها فعلا نفس الطوبونيميا والحصن، ولم يتغير الدور الاستراتيجي لهذا الحصن أو كما أطلق عليه "القلعة الصغيرة"، فالهدف من انشاء مثل هذه الحصون هو الجانب العسكري بشكل كبير، فقديما كانت مهمته مراقبة وحماية المعابر الجنوبية من أي هجمات مورية[10]، ونفس التوجه نجده خلال العصر المريني حيث مثل هذا الحصن درعا حاميا ضد أي سلطة غازية، ومنطلقا للغزو الهلالي العربي للأوطان البربرية الزناتية، وتخريب عمرانها، وجمع المغارم من سكانها[11].

وحصن الوطاية من الحصون التي اشتهرت خلال تلك الفترة، يذكره النميري فيقول:" وهذا الحصن كان لقرة عين ليعقوب بن علي، "وأعظم ذخر لوال له وول"، ومنه كانت اقواته المرغدة، ومراقده المسعفة المسعدة، ومرافقه المنتخبة المنجدة، وبجرايه مياهه عظمت جرايته وبرعي حميمه كرمت رعايته.."[12]، والراجح أن صاحب الحصن

قد خرج عن طوع المرينيين، ورفض مد يد الطاعة لبني مزني ولاته ببلاد الزاب، يقول في ذلك النميري:" وهكذا اليمين الفاجرة تدر الديار بلاقع(أرض قفراء) والبغي مرضعه وخيم، والعدوان موقفه ذميم، وكفران الصنيعة لوم، وأم النكث أنوم حطوم.."[13].

وقد خرب هذا الحصن أيام حملة السلطان أبي عنان عن بكرة أبيه، بعدما أمر السلطان جحافل جيشه" بنسخ أحكام أحكامه، ومحو سرور أسواره، وتقطير المواثل (ماذهب من الرسوم) والصاق الخسف بدياره، واثمار الاستقصاء لأثاره"، وهذه حال الحصن بعد تخريبه أين:" أحاطت النيران بخشب السقف فضمتها ضما واكلتها أكلا لما، ورمت بدخانها فألبست جوها حدادا وهرقته على قرطاس الأرض حتى خلناه مدادا وذهب العين والأثر..."[14].

وأورد النميري حصنا آخر من حصون العرب ببلاد الزاب، وهو (حصن فلق)، واحتوى بداخله على قصر شامخ من القصور التي شيدها العرب الهلاليون بالمجال الزابي" وقصورهم الشامخة التي تحمي بالطعان والضراب جوانبها"، وقد قدم لنا صاحب فيض العباب وصفا دقيقا لحصن الفلق فيقول: "و كان عالي البناء، ذاهبا كل مذهب في الأباء، متناسق الاسوار، مستوسع بمجاثم الجدار، قد عمرت حفائره قدر ما رفعت أبراجه، وضيقت موالجه قد ماوسعت مجاجه"[15].

ويواصل النميري وصفه للجزء الداخلي للحصن وما به من توطين عربي، مع انحيازه للسلطة المرينية من خلال التجريح في العرب الذين سكنوا هذا الحصن فيقول:" واستوى أحسن ما استوى معق أشب، ومعتصر على أهل عصره حدب، واحتوى على دور حسنت بها المواقف والمرافق، ولزمت أياديها الأسباع فلم تخرج يمنها المرافق، واستقر بها خدام العرب كل خبير خبيث، مغير غير مغيث معل للمطالع مطامح، نذل لا يعرف الفواضل لكن الفواضح"[16].

إن ظاهرة التخريب الهلالي والتي الصقت بهم لقرون من الزمن، قد تمثل بها السلطان المريني أبي عنان في رحلته العسكرية[17]، فهاهو يخرب ويشوه كل عمران بلاد الزاب، ويجعل عاليه سافله، وكذلك كان الحال لحصن الفلق، يصف حاله صاحب الفيض بعد تخريبه فيقول:" فلما ركب مولانا أيده الله تعالى..أوعز لهم بهدم فلق واراحة علاته فما امسى مساء ذلك اليوم الا وقد عفى الانساف اساريره، وطوى طواميره، ومحا محاديره، وصار حضيضا مراقيه ومراقبه وفرى فرائضه وكوى كواثبه.."[18].

والظاهر أن (حصن سفيان) قد كانت خاتمته كغيره من الحصون الأخرى، فقد أَوكَل السلطان المريني لقائده أبو عثمان سعيد بن موسى العجيسي مهمة هدمه وأمده "بخيل ورجل مانحا من القوة بأفعم شجل مشخصا بآلات الهدم مرصدا للوقد والوقم"، ويصف لنا النميري حاله بعد هدمه فيقول:" وصيره كأنه ما كان، ولم يترك به بحر الاهوال إلا الغربان، وعاد ذلك الحصن كعظام حصن أبي عيينة، ..وأزيل سواده..وقطعت شجراته.."[19].

ومن الحصون البارزة ببلاد الزاب، نذكر(حصن فرفر[20])، وكان ليعقوب بن علي وجماهر أولاد محمد يسكنونه، ويحميهم من شدائد الحياة وصعابها فكان ملاذهم ومأمن نكبتهم، وبه كانوا يجمعون مؤنهم ومجمع منتفعاتهم، ومأواهم إذا نابت النوائب وجف الثرى؛ ولم يكن حال هذا الحصن بأفضل من سابقيه، فقد أمر السطان أبي عنان جنوده والقبائل العربية المزنية التي والته بهدمه وحرق ما به من شجر وحجر فاجتمعت عليه الأيدي:" محوا ومحقا حتى عرفت ابنيته الخط بالغبار بعد التجميل وسقفه الكسر، وعفرت بأخاديده خدود الصخور، ولم تطمع بطون حفائره في الظهور.."[21].

وشيدت الكثير من القلاع المحصنة بجبال ريغه، تميزت بعظمتها وشموخها، فاستقر بها العرب من رياح، وخرجوا عن طوع السلطة المرينية بعدما مدوا أيديهم لكفة السلطة الحفصية أيام سلطانهم أبي فارس عزيز، لهذا فقد زحف نحوها السلطان المريني أبي عنان لتأديب قاطنيها وهدم هذه القلاع التي حمت سكانها العرب لسنين طوال، ويتحدث النميري عن مسير جيوش المرينين باتجاه قلاع ريغه وهدمها فيقول:" فوجه الحاجب أبو عثمان سعيد بن موسى بجموع من الخيل والرجال فعفى آثار قلعتين في يوم واحد ..وتولى غير الشيخ أبي عثمان من الخواص هدم ما سوى تلك القلعتين فلا أثر لجميعها بعد العين ولا خلف لأبدها غير الأين..."[22].

وهكذا كان حال حصون وقلاع بلاد الزاب وما حوالها، فقد مسها الخراب، وأسقطت كل تحصيناتها، بعدما زحفت عليها جحافل المرينين والقبائل العربية المزنية، تأديبا لأهلها بعدما شقوا عصى الطاعة عن سلطان بني مرين أبي عنان، وامتنعوا عن دفع الجباية. إن المشهد العمراني ببلاد الزاب يكاد يكون واحدا فجل العمران مثلته الحصون والقلاع، مما يوحي بلا استقرار سياسي أججته الصراعات القبلية بين قبائل رياح وبني مزني على السلطة في بلاد الزاب، والراجح أن ولاء بني مزني للمرينين قد

رجحت الكفة لصالحهم حتى صاروا حكاما جددا لبلاد الزاب من قاعدتها بسكرة، ليتراجع النفوذ الرياحي وتنطفئ بشكل كبير شمعة القبائل المحلية الزناتية.

2-القصور:

الوجه الآخر للعمارة ببلاد الزاب مثلته القصور في تغير طوبونومي-قبلي ملحوظ، حتى صار لكل قبيلة متغلبة قصرا، فانتشر عمرانها، وفي هذا يقول ابن خلدون: "وكانت تخوم بلاد زناتة منذ غلبهم الهلاليون على إفريقية وضواحيها أرض مصاب بين صحراء إفريقية وصحراء المغرب الأوسط، وبها قصور جددها فسميت بإسم من ولي خطتها من شعوبهم"[23].لقد رسم هذا الشكل الجديد من العمارة تميزا كبيرا ببلاد الزاب، ولعل أبرز القصور التي شيدت في تلك الفترة هي قصور بني رياح الهلاليون الذين حادوا عن نمط حياتهم القديم ومالوا للاستقرار بأرياف الزاب، بعدما غلبوا بهذه الأرياف فكانت لهم مغتصبات وإقطاعات كثيرة، وبفضل الضرائب التي جمعوها من مختلف القبائل المحلية الزناتية وغير المحلية من العرب الوافدين، قاموا على اثرها بتشييد قصور تشريفية لهم ولعائلاتهم[24].

من هذه القصور نذكر(قصر باينة) البديع الذي بناه سعيد بن موسى بن أحمد الرياحي، وكان سعيد قد خرج عن طوع المرينيين، و:"وصل سبب الفساد بسببه، وتظاهر بالرباط فكان لكن لمن ظفر به"، فلما علم السلطان المريني بهذا "أمر أيده الله أن يلحق قصره بقصر بن عمه، ويتناول بالهدم المسيء"، وما كان حال هذا القصر بأحسن حال ممن سبقوه، فقد" اقتحمت القبائل مسافاته، ونهدت معتملة في محو سماته.."، حتى صار خرابا مثل خرائب لمبيس لما وقف عليها ابي عنان وقد كانت "بقايا معالمها التي خربتها سيوف الاسلام وطاف بقبتها المبنية بالحجارة المنحوتة.."، وينتقل اهلها من حال الى حال حتى "نقلهم من القصور الى القبور واودعهم بظلمات اللحود الى يوم النشور،...وجعل اخبارهم منبئة عن آثارهم، وآثارهم معربة عن اغتباطهم بالدنيا واغترارهم..."[25].

وكان صاحب (قصر القنطرة) يعقوب بن علي من الذين نزعوا يده من طاعة السلطان أبي عنان وكذلك فعل صهره علي بن الحكيم، فقد ظن بن علي أن قصره سيحميه من جيوش بني مرين، لما كان عليه قصره من شموخ وعلية: "قصر بديع بل حصن منيع قد أعمقت حفائره واعليت مظاهره، ووعرت انهاجه"، وقد زين القصر

النهر الذي ارتفعت سواقيه، فانتشرت على جنباته نخيل وأشجار دانية قطوفها، ومراعي لا همود لأزهارها المرتضعة، حتى صار النسيم ما بين القصر والنهر يمشي بين الرياض بالنميمة[26].

إن الحملة العسكرية التي قادها أبو عنان لبلاد الزاب، لتأديب الخارجين عن طوع المرينين من بني رياح، وتعيين خلفائهم من بني مزني لحكم بلاد الزاب من بعدهم، وقد كان يعقوب بن علي ممن شق عصى الطاعة عنهم، فلحق به وبصهره وقصرهما ما آلت اليه القصور والحصون والقلاع من قبلهما، وكان حاله بعد خرابه بأن:" تناهت القبائل إلى محو آثاره، بالتخريب وصرعت جدرانه صرع الاقران وتردد الاستئصال إلى سواده واتخذ الحطم بأرجائه مدى متطاولا"، ويصف لنا فرار صاحب القصر من ويلات جيوش ابي عنان فيقول:" علم اب عبد الحكيم ما لم يكن يعلم، وأيقن بالتي أدهى وأعظم، فوادع مسكنه وداع الأبد، وفارق القصر مفارقة الروح للجسد، ولحق بالعرب المصرحين ..."[27].

وجاء ذكر قصر آخر من قصور بلاد الزاب، وهو(قصر باتنه) الذي بناه سعيد بن العاصي، وقد خرج عن حكم المرينيين كذلك، هذا الأمر الذي جعل السلطان المريني أبي عنان وقد أمر" على ذلك القصر فعفيت آثاره وأضحى برجه وليس بوتد لكن مقرا لأوتاد.. وأمسى خلاء ..وتغيرت أحواله وانطمست أضواؤه .."، وكان مصيره مثل سابقيه ممن خربت قصورهم ودحرت دبورهم نحو الصحراء[28].

ومن قصور بلاد الزاب كذلك جاء ذكر قصر عثمان بن علي بن أحمد الرياحي، و الظاهر أن الجماعات الرياحية قد اتحدت في صف واحد ضد السلطة المرينية، خاصة وأن بلاد الزاب منذ أمد طويل كانت مقاطعة تتبع لإفريقية(تونس)، ويظهر عصيان عثمان في قول صاحب الفيض:" فدخل عثمان بن علي معه في الفتنة(ويقصد مع أخوه يعقوب بن علي).."؛ وقد جهز السلطان المريني لدحر هذا المرتد عن طوعه جيوشا جرارة، وما رجع إلى سرادقه حتى :"محيت آثار القصر، وأثبتت آيات النصر وسعدت القلوب والنفوس ورفعت بانحطاط تلك المصانع الرؤوس .."، فكان حاله ومآله كسابقيه، فخرب شر تخريب ونزعت بذرة التمرد الرياحي إلى الأبد من بلاد الزاب بعدما خلفهم بنو مزني على رأس سلطتها، وكذلك كان الحال والمآل[29].

3-القصبات:

في شهادته على النسيج العمراني لبلاد الزاب أيام رحلته إليها قاصدا مع السلطان أبي عنان المريني، يقدم لنا النميري شكلا آخر من أشكال العمران بطولقة ممثلا في (قصبة الأقلام) لصاحب المدينة عبد الرحمن الطولقي، وقد أورد لنا وصفا دقيقا لها فيقول:" قصبة طولقة التي اشتهرت في البلاد، وقبضت المنعة يدها إباد عن الانقياد، واطمأنت بها مفاصل فصل الجياد، وسنت مناكبها دروع الاستعداد...موشحة العطفين لكن بالعدد الوافرة الأعداد"[30]. إن هذا الوصف يبرز لنا الفن المعماري الراقي الذي طبع العمران بمدن بلاد الزاب على غرار حاضرة طولقة، ويظهر أن صاحب هذه القصبة قد خرج عن طوع المرينين، ومد يده للعرب ضد الشيخ أبي يعقوب المزني، وقد كان من الموالين للسلطان المريني.

وكان الرحيل إلى طولقة بعدما استقر الوضع في فرفارة(فرفر)، فانحازت طوائف من بسكرة وبلاد الزاب لاستئصال قصبة طولقة الرفيعة الجناب، ويصف لنا صاحب فيض العباب ما صارت عليه القصبة بعد هذا اليوم المعلوم فيقول:" وأصبحت أسوارها مجرى للجود العراب، وبروجها مطلعا للعواء لكن من الكلاب، وحيطانها موطنا لأخفاف ونعال مرجومة كقبر أبي رغال.."، وعكس باقي من استوطن القصور السابقة و الحصون المخربة الآنفة، فقد كان قلب السلطان لينا رحيما مع أهل طولقة فقد:" أشفق على رعية أهل طولقة فأبقاهم ومواطنهم، ورحم مساكنهم، فخلاهم(تركهم) ومساكنهم"[31].

أمّا صاحب القصبة عبد الرحمن الطولقي فقد قبض عليه حيا ونقل إلى حضرة فاس عاصمة الدولة المرينية، ولبث في سجنها حتى وافته المنية، بعدما أخرج أهله من قصبة طولقة، وعاد الحكم بيد بني مزني وشيخهم أبي يعقوب المزني، وصار بيدهم الأمر حكما وجباية.

من قصور الزاب: قصر عثمان الرياحي أنموذجا

1-المواصفات التقنية والتخطيط:

القصر يشبه القلعة الصغيرة(Burgi)، ويشرف على المسالك والسهول المواجهة لقبيلة لواتة البربرية، وقد أُقيم على أرضهم التي غصبت منهم[32]، ويمثل شكل مربع على الأرجح يجهل مساحته، لكن وإذا ما أخذنا بفرضية أنّ هذا القصر مربع الشكل فإن طول ضلعه سيكون ما بين 10و20م[33]؛ بحسب صاحب فيض العباب فهو قصر منخرق

المساحة، يتوسط هذا القصر ساحة واسعة[34]، تشبه على الراجح لحد كبير ساحة قلعة زراي و زانة، بل حتى الشكل الخارجي للقصر الرياحي تتشابه مع هاتين القلعتين الصغيرتين، مما يوحي بتواصل عمراني واضح[35]، وإذا ماقارنا ساحة القصر مع ساحة قلعة طبنة نجدها متشابهة كذلك[36]. والقصر بناه عثمان بن علي بن أحمد الرياحي، وهو من القصور البديعة ببلاد الزاب، واعتمد في بنائه على نوع من الحجر يسمى "حجر العيسوي"، والراجح أنه على شاكلة الحجر الموجود بجبال متليلي والتي اعتمدت لبناء حصن طبنة وقصرها[37].

يبلغ عدد أركان القصر أربع أركان، وقد ارتفعت جدرانها من جهات القصر الأربعة في تحفة عمرانية مميزة، وللقصر برج خامس يلتصق مع بابه والراجح أن الباب الخارجي مزدوج المدخل لما تعارف عليه في مثل هذا الشكل المعماري[38]، والأكيد أن هذه الأبراج مربعة الشكل تقع في منتصف الزاوية، وهي تشبه إلى حد بعيد الابراج البيزنطية القديمة في قلعة: زراي؛ زانة؛ طبنة، مما يرجح تواصل الفن المعماري القديم مع تغيير في النمط من الغربي المسيحي إلى الإسلامي[39].

والغريب في وصف النميري للقصر، لم يأت ذكره على وجود مسجد أو جامع بداخل القصر، وهو أمر محير للغاية، قد يؤكد إلى حد كبير صفة التحيز للصف المريني، حين يصف عرب بني رياح قائلا:" العرب المنافقون في الصحاري والمفاوز"[40]؛ غير أن الملفت للانتباه هو وجود رباط داخل القصر على الأرجح وهذا من خلال شهادة صاحب الفيض حين يقول:"حتى إذا ركب عثمان (الرياحي) دخلوا في مصاف المرابطين وكانوا في أمرهم من المغالطين"، ويضيف في قوله:"ومع ما كان المرابط عثمان أوتي البسطة في المال ومنح من المكاسب واتساع الاحوال"[41].

الأكيد أن التخطيط الهندسي لقصر عثمان الرياحي، لا يكاد يختلف كثيرا عن قصر بلزمة(Lamasba) والتي نقلها لنا صورتها ألبرتيني في دراسته البارزة (la foteresse byzantine de ksar bellezma)[42]، كما يشبه لحد بعيد الشكل الهندسي لقلعة زاراي وكذلك قلعة زانة، مع وجود اختلاف واحد هو وجود برج مراقبة خامس يعلو الباب الخارجي لقصر عثمان الرياحي. إن هذا التشابه يؤكد لنا التمثل واستمرار هندسة التحصينات القديمة التي اعتمدت أيام الصراع البربري–الرومان–بيزنطي، والذي ولدته حالة عدم الاستقرار الاجتماعي، بعد الانتفاضات المستمرة للسكان المحليين، لذا مخافة

خسارة مواقعها المهمة اعتمدت السلطات الرومانية-البيزنطية تشييد هذه القصور والقلاع بالأشكال المتعارف عليها، أولا لاعتمادها كواجهة للحراسة، وثانيا لجمع وتخزين الجبايات، والمؤن والأسلحة اللازمة، وثالثا لمنعة وحصانة هذه البنايات خاصة وأن لها أبراجا تحميها وأبوابا مزدوجة المدخل حصينة تمنع أي دخول لها بعد إغلاقها[43].

إن المواصفات الهندسية التي أُعتُمِدَت في بناء قلعة بني رياح تؤكد استعداداتهم لمجابهة أي سلطة خارجية تحاول ردعهم، خاصة وأن قبيلة رياح كانت من القبائل المناهضة للسلطة المركزية منذ وصولها إلى بلاد الزاب، ويؤكد هذا التوجه محاولات المستنصر لردعها والسيطرة على مجالاتها كما سلف ذكره، وهو الأمر الذي حصل فعلا[44]، فالخروج عن طاعة السلطان المريني بفاس، والامتناع عن جمع الجبايات لصالحه، والميول حتما باتجاه الحفصيين قد سارع الزمن بني رياح لصراع مرير مع الجانب المريني، لتكون نهايته وخيمة على العائلة الرياحية بعدما فقدت سلطتها ببلاد الزاب كله، وأصبحت تحت رحمة عائلة بني مزني الحاكم الجديد للمجال الزابي في تحول مجالي-قبلي لم يكن وليد هذه الفترة بل سبقته تحولات مجالية أخرى[45].

2-توطين القصر:

بخصوص الاستيطان والعمارة الداخلية للقصر، فهو يحتوي على مساكن وديار مبنية بالحجر والسواري السامية، وزينت مداخلها بالرخام فهي:"محكمة البناء متناسقة السكك متسعة الإذراء"، وقد استوطن بها العرب من بني رياح، وخصص جناح- تشريفي- لصاحب القصر عثمان بن أحمد الرياحي وكانت:" دار عثمان أجلها، بديعة الاختطاط، معجبة الاستنباط"[46]، ويؤكد التواصل في استخدام الفن الزخرفي الرومان-بيزنطي في عمارة قصور بني رياح شهادة صاحب الفيض حين يقول:" قد قامت من جهاته الاربعة على السواري السامية من الرخام، مما اخترعته الروم قبل الاسلام وخلفته بلميس وغيرها .."[47].

واستوطنت القصر وما حوله فيالق جيش وعساكر العرب من بني رياح، ممن أُوكِلت لهم مهمة اغتصاب الأراضي وجمع الضرائب عنوة من القبائل المحلية على غرار لواتة وزناتة[48]؛ والظاهر أن الجماعات الرياحية قد نجحت في تشييد قصور

"قبلية" محصنة سمحت لهم بممارسة سلطة ريفية على هذه الجماعات المحلية بفضل اغتصاب أراضيهم ووقوعهم تحت طائلة عساكرهم، مما ألحق الكثير من الخراب لهذه الجماعات البربرية، وهو ما يشبه الاحكام المتعلقة بالجماعات الهلالية ودورها التخريبي[49].

إن اتهام الهلاليين بالبداوة والتخلف لا يعكسه التطور الحضاري التي وصل إليه تفكير أحد فروعها ممثلا في فرع بني رياح، وقد أثبتوا أن ليس كل الجماعات الهلالية حافظت على حياتها المشرقية، ويظهر هذا من خلال العمران وأشكاله الهندسية والزخرفة الراقية، أضف إلى ذلك الزينة والتجميل الذي عهدوه إلى قصورهم، ففي شهادته عن المنظر الجمالي للقصر يتحدث النميري فيقول:" وحفت بهذا القصر جنات تعرف في وجوهها نضرة النعيم، وحدائق تسهل ألفات غصونها ألسنة النسيم، من كل ناضرة تبدي محاسنها الفائقة، وتنسي حمائم شجراتها الزائقة، وخضرة تسبي بالأنفاس العطرية وتنعم تنغم بالعين وتمكن من طبقتها الغنية"[50].

3-بنو مرين وعثمان بن رياح:

لقد دخل عثمان بن علي الرياحي في صراع مع أخيه يعقوب بن علي بعدما شق الأول عصى الطاعة على السلطان المريني، فظهر للعيان الخلاف بين الأخوين، وواكب هذا الخلاف الحملة العسكرية التي سار بها السلطان المريني أبي عنان رفقة كاتبه النميري، وقاضيه العسكري المقري رحمة الله عليه، فدخل معهم عثمان في فتنة، وشرب من نفس الكأس الذي شرب منه ابن عمه سعيد بن موسى الرياحي صاحب (قصر باينة)، حيث أمر السطان أبي عنان جنوده ومن والاه من بني مزني و رياح بهدم القصر وصدر عهده الكريم:" بإذهاب رسمه وركب حتى قسمت مسافاته على القبائل، وأسلمت مصانعه البديعة إلى الغوائل، فتحكمت في تحليل تركيبه المعاول، ولم بعجب من مبنيه إلا غيرته العوامل"[51].

لقد تميز الدور المريني بالزاب المرتكز في الأساس على عائلة بني مزني بطابع التخريب العمراني بعدما أقدم السلطان المريني على تهديم وتخريب كل القصور والحصون والقلاع ببلاد الزاب والأوراس، ولعل الغاية من هذا كله ضمان السيطرة على الجباية لبيت المال، وتأديب كل من يخرج عن طوعهم[52]. والراجح أن الأمر قد عاد بالعكس على الجماعات الرياحية بعدما اعتمدت السيف والغصب للسيطرة على

ممتلكات لواتة وزناتة، فدار عليهم الزمن حين خربت ديارهم وهاموا في الصحاري مهجرين، ليس هذا فقط بل خسروا السلطة لمنافسيهم بني مزني[53].

خاتمة:

من خلال ما مر بنا، يظهر لنا جليا نجاح بنو رياح في تعمير مجالاتهم، والذي وقف عليه ابن الحاج النميري بالرغم من انحيازه في رحلته العسكرية للجانب المريني، لكنه نجح في تقديم مشاهد مختلفة لأنواع العمران بالمجال الزابي وبالأوراس، والذي تحكمت فيه إلى حد كبير الجماعات الهلالية ممثلة في بني رياح، ثم بني مزني خلفائهم ما بعد ولائهم للمرينيين.

إن عمارة القصور، الحصون، والقلاع، وحتى القصبات، التي حولت الواقع الريفي ومهدت بشكل واسع إلى تطور حضري يغلفه جانب التحصينات من جهة، وجانب العمارة القبلية–التشريفية، وهو ما يفند إلى حد كبير الدراسات السابقة القائلة بالكارثة الهلالية، وقد جاء هذا التفنيد في شهادة العلامة ابن خلدون نفسه في فصل من كتابه العبر" العمران"، كما كان نجاح بني مزني في بناء ملك في قاعدة الزاب بسكرة، رد آخر على كل الاتهامات التي تحولت فيما بعد إلى حجج وبراهين على أن الفصيل الهلالي كان له الدور في رقي وازدهار المجالات التي استقروا بها، على غرار قصور بني رياح التي عالجنا نموذجا منها مثله قصر عثمان الرياحي، واكتشفنا مدى رقي وازدهار الفن المعماري عند الجماعات الرياحية وغيرهم ببلاد الزاب والأوراس.

الاحالات والمراجع:

[1] حول التباين الذي ميز فكر ابن خلدون بين عنصر التنظير وعنصر الرواية الخبرية عند معالجته لظاهرة هجرة الجماعات الهلالية نحو بلاد الزاب خاصة، ينظر: علاوة عمارة، "الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب"، المجلة الخلدونية، العدد 09، الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية، بسكرة–الجزائر، جانفي 2011، ص83–85.

[2] صلاح الدين هدوش، "المدينة ببلاد الزاب من خلال المصادر العربية5–8ه/11–14م"، مجلة علوم الانسان والمجتمع، العدد 14، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة–الجزائر، مارس 2015، ص 106–108؛ الطاهر بونابي، "ظاهرة الاندماج الهلالي في المنظومة الصوفية بالمغرب الأوسط خلال القرن 8ه/14م"، مجلة الآداب والعلوم الاسلامية، العدد12، كلية الآداب والحضارة الاسلامية، جامعة الامير عبد القادر، قسنطينة–الجزائر، 2011، ص152–154.

[3] ابن خلدون، كتاب العبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج6، ص 585-595؛ وينظر: سليم كرام، "دولة بني مزني من خلال كتاب فيض العباب"، المجلة الخلدونية، العدد 09، الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية، بسكرة-الجزائر، جانفي 2011، ص 169-171؛ علاوة عمارة، "الهجرة الهلالية وأثرها"، ص85.

[4] ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداحة الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990.

[5] الطاهر بونابي، "حركة المرابطين السنة في الزاب بين التصوف و الرباط"، المجلة الخلدونية، العدد 09، الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية، بسكرة-الجزائر، جانفي 2011، ص59-61.

[6] النميري، فيض العباب، ص 418-449.

[7] M. Blanchet, « Excursion archéologique dans le Hodna et le Sahara », *Recueil de mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 33, 1900, P. 292-293. notices et

[8] حول التحولات الطوبونيمية ببلاد الزاب يراجع: محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص46؛ الطاهر طويل، "جغرافية العمران بالمغرب الاوسط خلال القرون الهجرية الأربعة الأولى": مغرب أوسطيات-دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الاسلامي الوسيط، ط1، منشورات مكتبة إقرأ، قسنطينة-الجزائر، 2013، ص 45-49؛ علاوة عمارة، "التحولات المجالية والطبونيمية لبلاد الزاب من الفتح الاسلامي إلى نهاية القرن الثامن هجري/14م"، مجلة تراث الزيبان "أعمال الملتقى الوطني الأول حول التراث بمنطقة الزيبان 28-29 ديسمبر 2015"، العدد 01، ، جمعية تراث الاجيال عين الناقة، بسكرة-الجزائر، 2016، ص 13-14.

[9] يوسف عيبش، الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية لبلاد المغرب القديم أثناء الاحتلال البيزنطي، أطروحة دكتوراه في التاريخ والآثار(منشورة)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري-قسنطينة، الجزائر، 2007/2006، ص 375.

[10] يوسف عيبش، المرجع السابق، ص 376.

[11] النميري، فيض العباب، ص 418.

[12] المصدر نفسه، ص 426.

[13] نفسه، ن. ص.

[14] نفسه، ص 427.

[15] نفسه، ص 428.

[16] نفسه، ص 429.

[17] تعتبر رحلة السلطان أبي عنان المريني العام 758ه/1356م من الرحلات العسكرية، حيث انطلق من عاصمة المرينين فاس باتجاه بلاد المغرب الأوسط وبالتحديد قسنطينة والزاب، وقد كان برفقته قاض متمثلا بمن سبقه من سلاطين بني مرين حيث كانت لهم عادات بأن يرافق قاض العسكر ركبهم وحملاتهم، على غرار الفقيه المقري الذي كان قاضيا لعسكر المرينين، ومرافقا، ورافقه أيضا كاتب

الرحلة ابن الحاج النميري الذي أخرج الرحلة في ديوانه الأدبي–الشعري–التاريخي "فيض العباب"، للاستزادة ينظر: الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ، ط2، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966 ، ص 96؛ وحول مصاحبة المقري، ينظر: ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، نشر: محمد أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 154–155.

[18] فيض العباب، ص 429.

[19] المصدر نفسه، ص 462.

[20] فرفر: هو طوبونيم جديد للتسمية النوميدية القديمة فرفار، والتي تحولت إلى اللاتينية ثم إلى العربية بتحريفات مختلفة، وفرفار هي واحة من واحات الإقليم الصغير طولقة، والذي يضم المدن الثلاثة القريبة: فرفار، طولقة، ولوشانة أو ليشانة؛ ينظر: البكري، المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، 2003، ج2، ص254–255؛ الطاهر طويل، المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط(من النصف الثاني للقرن الهجري الأول إلى القرن الهجري الخامس)، مطابع حسناوي، الجزائر، 2011، 106؛ علاوة عمارة، "الهجرة الهلالية وأثرها"، ص 79؛ وينظر:

A-L. Delattre, « Excursion dans le Zab occidental », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 4eme vol de la 3eme série, 1988, p. 277.

[21] النميري، المصدر السابق، ص 462.

[22] المصدر نفسه، ص 463–464.

[23] ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 29.

[24] محمد حسن، المرجع السابق، ص 43.

[25] النميري، المصدر السابق، ص 416–417.

[26]المصدر نفسه، ص 422.

[27] نفسه، ص 423.

[28] نفسه، 419–420.

[29] نفسه، ص413.

[30] نفسه، ص 435.

[31] نفسه، ص450.

[32] محمد حسن، المرجع السابق، ص 41–43؛ علاوة عمارة، "التحولات المجالية والطبونيمية لبلاد الزاب"، ص 18؛ الطاهر بونابي، "حركة المرابطين السنة في الزاب"، ص59؛ صلاح الدين هدوش، المرجع السابق، ص 108.

[33] حول مقاييس وأطوال مثل هذه الحصون الرباعية الصغيرة Burgi، ينظر: يوسف عيبش، المرجع السابق، ص 294–295.

[34] النميري، المصدر السابق، ص 413.

[35] حول الشكل الهندسي لقلعة زانة و زراي ينظر إلى اللوحات التي عرضها يوسف عيبش في دراسته : الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد المغرب القديم أثناء الاحتلال البيزنطي، ص 352 و 363.

[36]Raoul Grange, « Monographie de Tobna (Thubunae) », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 35, 1901. pp. 65-73.

[37] النميري، المصدر السابق ، ص413 .

[38] المصدر نفسه، 413-414.

[39] محمد حسن، المرجع السابق، ص37؛ يوسف عيبش، المرجع السابق، ص 290-298؛ الطاهر طويل، "جغرافية العمران بالمغرب الاوسط"، ص 45-48.

[40] النميري، المصدر السابق، ص 410.

[41] المصدر نفسه، ص 415.

[42] E. Albertini, La Forteresse Byzantine de Ksar Belzma, BSNAF, 1934, p. 156-158.

[43] يوسف عيبش، المرجع السابق، ص 288-291، وينظر: M. Blanchet, *op. cit.*, pp. 292-293.

[44] محمد حسن، المدينة والبادية في العهد الحفصي، مطبوعات جامعة تونس الأولى، تونس، 1999، ج1، ص 109.

[45] الراجح أن سلطة بنو رياح قد تراجعت بشكل كبير أيام السلطان أبي الحسن والد أبي عنان، بعدما أصبح بنو مزني موالين له، ويقول في هذا ابن الحاج النميري "وكان رئيسهم الشيخ أبو يعقوب يوسف بن منصور ابن الفضل بن مزني ممن انقطع إلى الدولة المرينية ... وكتب بيعة بلده (ويقصد بلاد الزاب) لمولانا المرحوم (ويقصد أبو الحسن).". وخلال حملة أبو عنان نلاحظ ازدياد سطوة بنو مزني على بلاد الزاب، وتراجع القوة الرياحية بطرد كل زعمائها إلى القفار بعد تدمير قصورهم، ومصادرة أموالهم. النميري، المصدر السابق، ص 431-432؛ محمد حسن، المدينة والبادية، ص 102 و 115.

[46] النميري، المصدر السابق، ص 413-414.

[47] المصدر نفسه، ص 414.

[48] نفسه، ص 415.

[49] علاوة عمارة، "التحولات المجالية والطبونيمية لبلاد الزاب"، ص19-20.

[50] النميري، المصدر السابق، ص 414.

[51] المصدر نفسه، ص 415.

[52] علاوة عمارة، "التحولات المجالية والطبونيمية لبلاد الزاب"، ص20.

[53] في دراسة بارزة لعلاوة عمارة حاول فيها طرح قضية المغتصبات الهلالية ببلاد الزاب، وبالأخص اقتطاع الاراضي وطرد الجماعات المحلية منها، مركزا على شهادات مصدرية: الرحلات والجغرافيا كالإدريسي صاحب النزهة، والنميري صاحب فيض العباب، والنوازل الفقهية كالمعيار المعرب، والمصادر الاخبارية المتأخرة مثل كتاب العبر للعلامة ابن خلدون، متوصلا لنتيجة مهمة هي وجود حقيقة

هذا التوجه خاصة مابعد القرن 5ه/11م وحتى مرحلة مد النفوذ بدايات التحول نحو الاستقرار بالقصور، في تحول طوبونومي جديد في المجال الزابي حل محل الزوايا والاربطة القديمة. ينظر: علاوة عمارة، "الهجرة الهلالية وانحطاط حضارة الغرب الاسلامي-قراءة في نقاش تاريخي-": دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الاسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص 7-32؛ وينظر: نفس المؤلف، " الهجرة الهلالية واثرها"، ص 81-83.